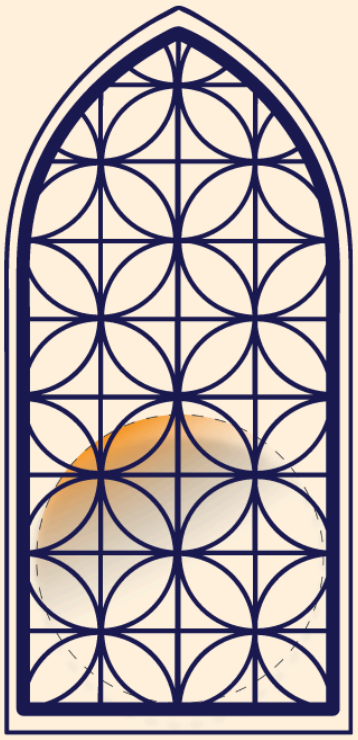

لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

/https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله --عزّ وجلّ--، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثالث عشر

الخميس 13 رمضان 1443

سورة إبراهيم الآيات (1 - 4)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونحن معترفون بفضله العظيم علينا وعلى المؤمنين بإنزال هذا الكتاب العظيم، معترفون بنعمه العظيمة أن علّمنا التوحيد، وهذا مثلما ذكر يوسف -عليه السلام- لما قال عن التوحيد: (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)[1] اللهم اجعلنا من الشاكرين على جميع نعمائك وخاصة نعمة التوحيد، ونعمة نور الإيمان، التي بها يطمئن الإنسان، فمهما أتت عواصف هذه الحياة، ومهما أتت على الإنسان من تغيرات في أحواله وأوضاعه واستقراره وصحته وماله وولده، فيبقى الإيمان بالله ودعاء الله

---

[1]() يوسف: 38.

والرضا بما قدر الله، هو سبب استقرار الإنسان وطمأنينته وإكماله في الحياة على الصراط المستقيم الذي يحبه الله، فيحصل الإنسان من هذا على طمأنينة في الدنيا، وجنات عرضها كعرض السماوات والأرض عندما يلقى ربه وهو عنه راضٍ، الحمد لله على نعمائه، اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا واجعلنا ممن زادت أيامهم، وزاد علمهم ويقينهم، حتى يلقوك وأنت راضٍ عنهم، اللهم احشرنا مع الصالحين وألزمنا طريقهم، حتى نلقاك سالمين يا رب العالمين.

نقرأ عن نعمة إنزال الكتاب وتعليم التوحيد، نقرأ في مطلع سورة إبراهيم -عليه السلام- وهذه السورة سميت بسورة إبراهيم لما فيها من ذكر إبراهيم إمام الموحدين، نقرأ مطلعها بإذن الله ونتناقش فيما يتيسر لنا من معانيها لنزيد شعورًا بنعمة الله علينا بالتوحيد والقرآن والإيمان.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4))

هذه الآيات المباركات في مطلع هذه السورة العظيمة فيها خبر عن إنزاله -عزّ وجلّ- للكتاب، واضح أن السورة بدأت بالحروف المقطعة، والحروف المقطعة معلوم أنها أتت في هذا الكتاب العظيم للدلالة على إعجازه، فإن هذه الحروف لها مغزى في بيان أن القرآن يتكون منها ومع ذلك لا يستطيع أحد من الخلق الإتيان بمثل هذا الكتاب، بل الإتيان بآية من آيات هذا الكتاب، فيبيّن -عزّ وجلّ- عظمة هذا الكتاب والغاية من هذا الكتاب. وفي ذلك ضمنًا يشير إلى مكانة رسولنا الكريم -صلّى الله عليه وسلّم-، الذي نزل عليه الكتاب، فيقول -عزّ وجلّ- :

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ) هنا إشارة عظيمة إلى طريقة التلقي لهذا الكتاب الذي أنزله الله. هذا الكتاب من عالم علوي، هذا الكتاب أنزله الله، فالمعاملة معه ليست مثل المعاملة مع أي كتاب.

(أَنْزَلْنَاهُ) أنزله الله، تكلم به -سبحانه وتعالى- وأنزل به جبريل -عليه السلام- على نبينا الكريم -صلّى الله عليه وسلّم-، (أَنْزَلْنَاهُ) فعل لله لا بد أن يكون له مكانه في قلوبنا، مؤثر على مكان القرآن في قلوبنا. هذا الكتاب نزل من العالم العلوي، نزل من عند رب العالمين، نزل به الروح الأمين.

(أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) فتأتي الإشارة إلى رسولنا الكريم، ويأتي البيان هنا في أن هذا القرآن نزل على هذا الرسول لرفع مكانة النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، ولإصابة أعدائه بالغم، وإصابة حسدته -صلّى الله عليه وسلّم- بالقهر؛ لأن رب العالمين يبيّن هنا أنه خصّ رسوله الكريم بإنزال هذا الكتاب، فهذا مما يزيد يقين المؤمنين بمكانة الرسول الكريم، ويزيد حسن صلاتهم وسلامهم عليه -صلّى الله عليه وسلّم-.

أنزل هذا الكتاب إلى هذا الرسول الكريم، والغاية من ذلك بيّن لنا رب العالمين المقصد والغاية بكلمات عظيمة: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) فلو نظرنا أولًا أن إسناد الإخراج إلى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- واضح (لِتُخْرِجَ) يا رسول الله (النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) فإسناد الإخراج إلى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لأنه يبلغ هذا الكتاب، فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- بتبليغه يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

انظر إلى هذا الكلام الذي يزيد مكانة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ويقهر أعداءه، أن الله -عزّ وجلّ- جعل بلاغ النبي -صلّى الله عليه وسلّم- للقرآن إخراجًا للناس من الظلمات إلى النور، وكل من سار على سير النبي -صلّى الله عليه وسلّم- كان له شيء من هذه الصفة؛ لأن تبليغ هذا الكتاب المشتمل على طرق الهداية إلى الإيمان، المشتمل لتعليم الإنسان الحق فيزداد بالحق يقينًا وثباتًا، وتعليمه خطر الباطل فيزداد من

الباطل نفورًا، فبهذا يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- أُسند له الإخراج لأنه مبلّغ للكتاب، والكتاب مشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان والحق، وإظهار فساد الشرك والباطل والكفر.

فالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- كان يبلغ القرآن ويقرب للناس معانيه، ويفسره، ويبينه، ويعظ به وينذر به ويبشر به؛ إذًا هذا القرآن نزل إليك يا رسول الله لأجل هذه الغاية؛ أن تخرج الناس من الظلمات إلى النور بسبب هذا الكتاب المنزل، بما في هذا الكتاب من معاني الهداية، فلا يخرج أحد من الظلمات إلى النور حقًا إلا بهذا الكتاب؛ لذلك لا يستبدل أي أحد يدعو إلى الهداية الكتاب بأي شيء آخر، إنما عليه بالكتاب وبما تكلّم به رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-؛ لأن هنا واضح (لِتُخْرِجَ) يا رسول الله (النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، كيف يخرجهم؟ بتبليغه وتبيينه وتقريبه لمعاني الكتاب، يخرجهم بوعظه ونذارته وبشارته للخلق من خلال الكتاب ومن خلال كلامه -صلّى الله عليه وسلّم-.

فهذا مراد الله تعالى بإنزال الكتاب: إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فالهداية هي مراد الله، فلنعلم جميعًا أن الله لما خلقنا في الدنيا لم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا رسولًا وأنزل على الرسول الكتاب وأمر الرسول بالبلاغ، فلنشكر الله على هذه النعمة العظيمة. من أعظم النعم: أن يخرج الإنسان من الحيرة.

تصور حين يكون الإنسان في حيرة، والحيرة هي الظلمة، والإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل، فلنعلم أن الكفرة والمنافقين ومن في طريقهم سائرين، هؤلاء منغمسون في الحيرة، متحيرين، إنهم في ظلمة وحين يدخل الإيمان ينتقلون من الظلمة إلى النور، ولتصور لنفسك دائمًا هذا المعنى حسيًا، نستطيع أن نعيش هذا المعنى ليس بالكفر ولا بالنفاق -نعوذ بالله- إنما بالحس، الظلمات والنور، إذا دخلت إلى مكان لا تعرفه وكان بلا نور فإن الخوف يتملكك، تخاف أن تذهب يمنة فتجد ما يضرك أو يسرة فتجد ما يفزعك، تخاف أن تسقط بسبب شيء أمامك، لا تدري ما أنحاء هذا المكان، ما أجزاؤه، كيف تسير فيه، كيف تقطع الطريق لتخرج منه! هذه هي الظلمة، لكن لو أتى بصيص نور سيكون بمثابة الفرجة العظيمة، واعتبر بهذا -الله يعيذنا ويحفظنا ويحفظ جميع المسلمين- عندما يحصل شيء من الحرائق أو ما يشبهها، ثم تُطفأ كل الأنوار وينزلون على الدرج، ويخلو المكان، ويكون الإنسان مع علمه بالمكان وصعد ونزل كثيرًا لكن يصعب عليه النزول في الظلام، والمخاوف تحيط به، وهكذا الإنسان في ظلمة عظيمة وحيرة تكاد تُذهب بعقل الإنسان...فهكذا أهل الكفر.

الله أنزل هذا القرآن لنفع الناس، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي، إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وهذا كله ما يكون إلا (بِإِذْنِ

رَبِّهِمْ) لا يحصل هذا إلا بأمر الله، ما يخرج الناس من الظلمات إلى النور إلا بمنة الله، وهذا كما مرّ معنا كثيرًا، أن نعرف أن الله المحسن إلينا بإنزال الكتاب، ينظر إلى قلوبنا، فإن كان الصدق هو الذي يحملنا في إرادة الحق، وإرادة الخروج من الظلمات، إذا كنا راغبين في الحق، محبين له، معرضين عن الباطل، كارهين له فقد بدأنا الخطوة الصحيحة، تقدمنا شبرًا، تقربنا إلى الله شبرًا، فيتقرب إلينا بعزته وجلاله وكبريائه وغناه عن خلقه، يتقرب إلينا ذراعًا، خلق الخلق وأراد هدايتهم -سبحانه وتعالى- إرادة شرعية؛ ولذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسول، وبقيت الإرادة الكونية، التي بعدها يحصل الأمر، مرتبطة بصدق العبد وإقباله على ربه. فإن حصل للعبد صدق وإقبال؛ أذن الله له فدخل النور إلى قلبه، فلا تسأل عن هذا النعيم الذي يعيشه العبد الذي يعرف أن ليس له إلا الله، الذي يعرف قرب الله، الذي يعرف قدرة الله المطلقة، الذي يعرف ملك الله العظيم، لا تسأل عن الطمأنينة التي تصيب قلب الإنسان الذي يعرف أنه كلما فزع وجد ملجأ وركنًا شديدًا يطمئن إليه وتستقر نفسه عنده، فلا يتشتت، ولا يشعر أنه بحاجة أحد إلا الله، فينصرف القلب كله إلى الله، ما أعظمها من نعمة!

لذلك نجد أن رب العالمين هنا يخبرنا أن هذه الهداية إنما هي (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)، ونلاحظ اسم (الرب) المحسن الذي يربّي عباده، وينقلهم من النقص إلى التمام، ربهم الذي يدبر

مصالحهم، فينفعهم في دنياهم وأخراهم، ربنا العظيم يأذن لمن كان صادقًا فيدخل إلى قلبه النور ويربّيه وينقله من حال النقص إلى حال التمام بإذن ربه، أنت يا رسول الله تخرج الناس بالبلاغ لكن هداية التوفيق ليست إلى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-؛ وإنما هي لله، قال تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)[2] فالأمر لله، وإن كان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يسند إليه فعل الإخراج لكن هذا بالإرشاد، وأما هداية التوفيق فهي لله. فالهداية هدايتان واضحتان في هذه الآية:

- هداية إرشاد.
- وهداية دلالة.

وهذه من الله بإنزال الكتاب، ومن رسول الله بتبليغ الكتاب، وهداية التوفيق ليست إلا بإذن الله، ليست إلا بيد الله، فلنطلبها جميعًا ونحن صادقون، وقد أرشدنا رب العالمين ماذا نقول لذلك، وهذا يبيّن لنا لماذا نقرأ الفاتحة في كل ركعة من كل فرض ونافلة؛ لأن هداية التوفيق وهداية الدلالة إنما هي بيد الله، وإن كان النبي -صلّى الله عليه وسلّم- يسند إليه هداية الدلالة (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) يعني لتدلهم على طريق الحق، فيخرجوا من التخبط والظلمة ويصلوا إلى الهداية والنور.

---

[2] () القصص: 56.

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) إذًا هذا هو النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، عندما يخرجون من الظلمات يذهبون إلى النور، والنور هو صراط العزيز الحميد، الصراط الموصل إلى دار كرامته، يرشدهم بالعلم بالحق والعمل به إلى هذا الصراط (صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ).

و (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) -سبحانه وتعالى- ذكر هذه الأسماء في هذا السياق لتظهر لنا أمور عظيمة، يجب أن تكون على بالنا دائمًا ونحن نعمل تقربًا إلى الله، من ذلك:

- يقيننا أن ربنا غني عنّا، وأنه بإرشادنا إلى هذا الصراط إنما هو محسن لنا، متفضل علينا، وهذا من غاية لطفه -سبحانه وتعالى-.
- وهو (الْعَزِيزِ) الذي لا يحتاج إلى أحد، هو(الْعَزِيزِ) الذي له عزّة القهر وعزّة القدر، فقدره عظيم وقهره على الخلائق كامل، فلنعلم جميعًا أنه على كل شيء قدير، ولنعلم جميعًا أنه هو الغني الحميد الذي يحمد على كل أفعاله، -سبحانه وتعالى-.
- (الْحَمِيدِ) -سبحانه وتعالى- فهو محمود بكل لسان ممجد في كل مكان، على كل حال.

فإذا فهمنا هذا فهمنا أن الأمر إنما هو بتوفيق الله، ولطف الله، وأننا نخرج بإذن الله إلى صراطه الذي به نصل إلى الخيرات، ولا تظن أنك بطاعتك تنفع الله، فالله (عزيز) لا

يمانع ولا يغالب، ولا يبلغ أحد نفعه فينفعه، ولا يبلغ أحد ضره فيضره، عزيز -سبحانه وتعالى- عزّة الامتناع وعزّة القدر وعزّة القهر فلا تظن أنك بطاعتك تنفع الله. هذا من جهة...

من جهة أخرى اسم (العزيز) فيه إشارة إلى أن من سلك هذا الطريق فهو عزيز بعزّ الله، وقوي ولو لم يكن له أنصار من أهل الأرض، فيكفي أن يكون الله هو ناصره.

ثم إن هذا الصراط (صراط الحميد) أي المحمود؛ لأن في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد الخلق إلى حمده -عزّ وجلّ-.

وفيه أيضًا إشارة إلى أن من سلك هذا الطريق كان محمودًا في كل أموره التي يتبع فيها هذا الدين وكانت له حسن العاقبة.

فـ(العزيز الحميد) اسمان لله يتضمنان وصفي العزّة والحمد ومن سار على (صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) انتفع بهذه الصفات، انتفع بصفات رب العالمين. فمن كان سائرًا في صراط العزيز أعزّه العزيز، ومن كان سائرًا في صراط الحميد أوصله -عزّ وجلّ- إلى أن يكون محمودًا في أمره كله، وخاصة في عاقبته.

الله -عزّ وجلّ- لما أنزل هذا الكتاب أراد من الخلق أن يعرفوا هذا الصراط لينتفعوا هذه المنافع، فحين يقول أحد: (ما دام ربنا غني عن الخلق فلم يريد منهم الطاعات والعبادات

والصيام والصلاة، أليس هو غني؟)بلى! بل هذا من أدلة غناه -سبحانه وتعالى-؛ لأن الغني أراد بهؤلاء الخلق أن ينتفعوا من غناه، أراد لهؤلاء الخلق أن يحصلوا خيرات من صفاته، فخلقه لهم توكيد على افتقارهم إليه، وخلقه لهم دليل كماله لأنه قادر على إيجادهم، ثم أنه خلق وأنعم، فظهرت آثار صفاته، ظهرت آثار اسمه (الحميد) الذي يحمد على صفاته، على عفوه، على غفرانه، على منته، فهذا الباطل الذي كثير من الناس يأتيهم الشيطان فيقول لهم: (ما دام ربنا غني فلماذا خلق الخلق ولماذا أمرهم بالعبادة؟) فلنؤكد على أنفسنا أنه لا يمكن أن يظن أحد أن خلق الخلق هو لحاجة، بل خلق الخلق للإنعام على الخلق بما لله -عزّ وجلّ- من كمال صفات، فيجدوا آثار كمال صفاته -سبحانه وتعالى- وتظهر عليهم آثار كمال صفاته؛ كما تظهر آثار صفات الجمال، تظهر أيضًا آثار صفات الجلال؛ لأن من لم يؤد حق الله يأخذه الله بعزّته واقتداره، فهو (عزيز حميد).

فهذا السياق يبيّن هذا الأمر بوضوح: أن الله غني عن خلقه، وهو (العزيز الحميد) لما خلق الخلق خلقهم ولم يتركهم، ما تركهم، وإنما هو الغني -سبحانه وتعالى- أمدهم بكل أسباب الحياة.

وهو (العزيز الحميد) حميد يرزق عباده بالوحي والعلم والمال، فيجب علينا شكره.

وهو -سبحانه وتعالى- (العزيز) الذي له صفات الجلال، فمن لم يؤد حقه أخذه الله بعزته وقدرته، ومن قام بما يستطيع عامله الله -عزّ وجلّ- بآثار اسمه (الحميد) فوجد في نفسه رحمة الله، وغفران الله، ومنّة الله، -سبحانه وتعالى-.

على كل حال، السائر إلى الله يجد أن القرآن يخرجه من الظلمات إلى النور، ويجد أن القرآن يضعه على هذا الصراط، ويجد أن التزامه بهذا الصراط سببًا لعزته ولحسن عاقبته، فيا لله كم تحمل هذه الآية من معانٍ تحتاج إلى تأمل وتأمل.

(اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

ثم بيّن -عزّ وجلّ- أن وصف (العزيز الحميد) إنما هو إشارة إليه -عزّ وجلّ-، إشارة إلى الله، الله العظيم المقصود: العزيز الحميد الله الموصوف بأن (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ). فلا يمكن أن يختلط عليك الأمر وتظن أن هناك عزيزًا غيره -عزّ وجلّ- عزًا مطلقًا، أو حميدًا غيره حمدًا مطلقًا.

وحين تنظر إلى صراط رب العالمين ترى أن هذا الصراط الذي هو الشرع من أكبر الأدلة على ما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، وحين تنظر إلى هذا الشرع وإلى هذا الصراط المستقيم صراط رب العالمين، ترى عزّة سلطان الله وترى أنه حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه -سبحانه وتعالى-،

فربنا بفضله منّ علينا بالهداية إلى الصراط المستقيم، وربنا بفضله أظهر لنا آثار كماله فوصلنا إلى تأليهه وهذا كله من فضله؛ لأنه كلما زاد الإنسان معرفة بالله، وبأسمائه، وبصفاته وبأفعاله، وعرف قراءة الحياة قراءة صحيحة، وعرف كيف يترجم ما يدور حوله، وصل إلى هذا الأمر العظيم؛ أنه وحده المألوه المعبود، وأنه وحده الذي (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) فيرى آثار تدبيره، ويرى آثار حكمته، فيرى الأرزاق تجري بطرق بديعة عجيبة من وراء الأسباب، ويرى بركاته تدور في أمور حوله، ويرى كيف أن الله -عزّ وجلّ- رغم أن العباد لا يشكرونه، بل يقعون في البطر والكفر، لكنه لا يمنع عنهم خيره، وهذا في الدنيا، لكن (وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ).

إذًا الله -عزّ وجلّ- حكم بأحكام دينية وحكم بأحكام قدرية، وهو يحكم في ملكه -عزّ وجلّ- (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) فالذي يجعل حياته موافقة للأحكام الدينية، وكلما نزل عليه قدر تصرف كما يحب الله، هذا فليبشر بحسن الجزاء.

وأما من نظر إلى أحكام الله القدرية وما يمر عليه من أحوال، وتصرف فيها بهواه وترك الأحكام الشرعية، فهؤلاء الويل لهم، لماذا الويل لهم؟ لأنهم أساؤوا الظن بالله، أين إساءة الظن بالله؟ كيف يظنون أن الملك العظيم، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، يخلق الخلق ويتركهم سدى، لا

يأمرهم ولا ينهاهم، يقدر عليهم أحزانًا فلا يعلمهم كيف يصبرون وكيف يخرجون منها أو كيف يسألونه وكيف يرجونه. ويقدر عليهم أفراحًا ونعمًا فلا يعلمهم كيف يشكرونها وكيف يصلون بها إلى رضاه. هل يتصور إنسان أن الملك العظيم، الذي (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، يترك العباد سدى؟! يتركهم هملًا!؟ نعوذ بالله من هذا الاعتقاد. لذلك قال تعالى: (وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ) الذين ظنوا أن رب العالمين يخلق الخلق ويتركهم، لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يعلمهم الحق من الباطل ولا يرشدهم حتى يصلوا إلى الصراط المستقيم، ويل لهم من هذا الاعتقاد. الحق أن رب العالمين خلق الخلق ولم يتركهم سدى، بل جعل كل شيء يدل عليه وعلى كماله وعلى جلاله، وجعل كل الأقدار تدفع إلى بابه، لكن هناك من يندفع إلى بابه وهناك من يغطي هذا كله، ولا يجعل له أي دلالة؛ لذلك توعد هؤلاء وقال: (وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) فهنا يأتي سبب كفرهم، وهذا ما يؤيد ما مر معنا في سورة يونس في الكلام عن (الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)[3] هذه الآية تدارسناها سابقًا في سورة يونس وتبيّن لنا أثر الغفلة، وهنا نفس المعنى:

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

---

[3]() يونس: 7.

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) هؤلاء هم الذين ظنوا أن الله -عزّ وجلّ- يخلق الخلق ويجعل هذا الملك ثم يتركهم هملًا، هؤلاء الذين توعدهم بالويل بيّن الله -عزّ وجلّ- صفتهم، فلهم ثلاث صفات:

الصفة الأولى: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ).

تصور معنى (يَسْتَحِبُّونَ) بمعنى أنهم يطلبون حبها، فهم يحبون الدنيا، ويحبون أن يكونوا محبين للدنيا، سبحان الله! (يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) كل الناس في نفسهم حب للدنيا، لكن أهل التزكية يعالجون أنفسهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ويجعلون حب الدنيا داء ويعالجونه بالإنفاق في سبيل الله، ويعالجونه بإزالة ما في القلب من طمع، ويعالجونه بأمور كثيرة توصلهم إلى التزكية، لكن هؤلاء يستحبون الحياة الدنيا.

بصورة أخرى عندما يكون في نفس الإنسان فسق وفجور -والعياذ بالله- وتجده يكره هذا، كرهه للفسق والفجور مؤشر خير يرجى لصاحبه أن ينجو بسببه، هذا ربما أحسن مثالًا عليه سحرة فرعون لأنهم قالوا لفرعون كما في سورة طه: (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ)[4] فكراهية ما كانوا عليه من السحر، كانت سببًا لنجاتهم.

---

[4]() طه: 73.

لكن هؤلاء يحبون أنهم يحبون الفسق ويفتخرون بذلك! ولا يجدون أنه شيء يحتاج إلى علاج، بل هو التمدن والتحضر في نظرهم! بل هم يسمون أنفسهم "التنويريين" سبحان الله، كيف تنقلب الأمور! (زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)[5] فهؤلاء الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة هذا يدل على أنهم في نهاية المحبة للحياة الدنيا، في غاية المحبة للحياة الدنيا وهذا لا يكون إلا حين يكون الإنسان غافلًا عن الحياة الأخروية، وغافلًا عن معايب هذه الحياة العاجلة، ومن كنت هذه صفته سيكون في غاية الذمّ! أين العقل في حب الدنيا والدنيا موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب، أليست الدنيا مليئة بالآلام والأسقام والغموم، والهموم والمخاوف والأحزان؟! أليست كل هذه اللذات التي يتلذذ بها الناس في الحقيقة حاصلها أنها دفع للآلام؟! لأننا نأكل دفعًا لألم الجوع وننام دفعًا لألم الإرهاق...وهكذا، لكن لذات الروح هي بنفسها لذة وسعادة، سبحان الله! أيّ عقل للإنسان في حب الدنيا وسعادتها منغصة بسبب الانقطاع والانقضاء، بسبب ما هي عليه من طبيعة الانتهاء؟! أيّ حب للدنيا وهي حقيرة قليل؟! فتصور كل هذه العيوب في الدنيا؛ آلام وأسقام وما فيها لذات إلا من أجل دفع الآلام، والسعادات منغصة بسبب الانقطاع وهي جملة وتفصيلًا حقيرة، فلا يحب هذه الحياة إلا إذا كان غافلًا عن

---

[5]() الأنفال: 48.

الآخرة. غافلًا عن معايبها (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)[6] سبحان الله. هؤلاء هم الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ثم يتبيّن أمر مهم أنهم في استحبابهم للحياة الدنيا على الآخرة أتت الصفة الثانية لهم: (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

فالإنسان إذا استحب الحياة الدنيا على الآخرة هذا ضال، لكنه لا يقبل أن يكون ضالًا فقط، غالبًا عندما يستحب الحياة الدنيا ينزل إلى درك أسفل من ذلك، فيصد عن سبيل الله! فيصبح ضالًا ومضلًا أيضًا؛ لأنه يريد أن يكون كل الناس مثله!

الصفة الثالثة التي هي أشد: (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا).

فالآن في الإضلال كأن فيه مرتبتين:

- مرتبة أن يسعى في صد الغير ومنعه من الوصول إلى النهج القويم، إلى الصراط المستقيم، يمنعوهم من سماع القرآن، يمنعوهم من الإيمان، يمنعوهم من معرفة المسلمين...وهكذا.
- المرتبة الأسوأ أن يسعى في إلقاء الشكوك والشبهات على الحق، ويحاول تقبيح صفة الحق بكل ما يقدر عليه من الحيل، وهذا كله نحن نعيشه ونلمسه، وهذا معنى أنهم (يَبْغُونَهَا عِوَجًا).

---

[6]() الأعلى: 17.

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) في أقصى مراتب الضلال الذي وصفه الله -عزّ وجلّ- فهم غاية في البعد عن طريق الحق، مثلما نقول: (السواد الشديد والبياض الشديد) هؤلاء في غاية البعد عن الحق -والعياذ بالله- ومن ثم هؤلاء إلى الهلاك.

الكافرون الذين توعدهم رب العالمين هم المسيئين الظن برب العالمين، الذين يظنون أن الله يخلق الخلق ثم يتركهم هملًا، وهم محبون لحبهم للدنيا! ولا يكفيهم نفسهم، بل يصدون ويمنعون الناس عن الحق ويرغبونهم في الباطل، بل ويلقون عليهم من الشكوك ما يلقونه لأجل أن ينصرفوا عن الحق! فليكن أهل الإيمان محسنين الظن بالله، يعلمون أن الله ما خلق هذا باطلًا (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[7] بل خلقت كل شيء حولنا ليدلنا عليك وليدلنا على أنه لا بد من لقائك، ولا بد من الدار الآخرة، ولا بد من أن يوضع أهل الإيمان في مكانهم، وأهل الكفر في مكانهم.

وإذا علمنا هذا فلنكن ممن يرشد إلى الحق، ولنكن ممن يوضح الحق، وهذه هي وظيفة الأنبياء، لكن أعداء الأنبياء يصدون عن سبيل الله، يمنعون الداخلين في الإسلام من الدخول فيه، مثلما يأتي أحد ويمنع المار من سلوك الطريق؛ لأن هذا صراط مستقيم موصل إلى مرضاته، فهم يقفون بينهم وبين مرضاة الله.

---

[7]() آل عمران: 191.

ولنكن نحن ممن يطلب مرضاة الله وينشر هذه المرضاة، فهؤلاء أهل الضلال عطلوا ما وهبهم الله من قدرات فلا استفادوا من فطرهم السوية ولا نظروا في الآيات الكونية ولا في الآيات الشرعية، ونحن نبذل جهودنا أن نستفيد مما أعطانا الله من فطرة سوية، ونستفيد من كل قوانا في تدبر آيات القرآن، وفي تأمل ما خلق الرحمن حولنا، نرى آثار لطفه وجماله وكماله وجلاله وعظمته. ومن هنا أتى هذا الخبر المهم:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) هذا من لطفه بعباده -سبحانه وتعالى-، فالرسول -صلّى الله عليه وسلّم- كبقية الرسل، أرسلوا بلسان أقوامهم، ليعلموا الناس ما يحتاجونه، فبعد أن يصل هذا إلى الخلق، بهذه اللغة التي أنزلها الله، بلغة القوم، وتتضح معالم الحق، يأتي هنا معرفة أن الإضلال والهداية بيد الله (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) يبيّن لهم الرسول ما أمروا به وما نهوا عنه، وتقوم عليهم الحجة، فيضل الله من يشاء، كما تبيّن في أول الكلام، أن من لم يقبل على الله ويكون صادقًا في إرادة الحق، هذا يصرف قلبه عن الحق ولا يكون في نفسه بصيرة للحق، ومن كان صادقًا أرشده رب العالمين.

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) العزيز الذي لا يخرج شيء عن قدرته، والحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها. ومن هنا نعلم أنه منفرد بالهداية والإضلال، فنطلب منه الهداية، ونسأله «يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبِي على دينِك»[8] وهو المنفرد بالإضلال، وفي هذا فلنكن كثيري الاستعاذة من الضلال، (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً)[9] وهذا كله بحكمته فهو لا يضع هدايته ولا إضلاله بالمحل اللائق.

وربما هنا يأتي سؤال: أليس الله -عزّ وجلّ- يرسل كل رسول بلسان قومه؟ الجواب: بلى، كل الرسل الذين أرسلوا قبل النبي -صلّى الله عليه وسلّم- كانوا يأتون إلى أقوامهم خاصة ويتكلمون بلسان قومهم فيتضح لهم الأمر، هذا كان خاص بكل الأقوام التي كانت قبل النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، ثم أتى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- وكانت رسالته عامة فخاطب قومه بلغته وبلغتهم المشتركة، لكن لما كانت هذه الرسالة عالمية فكيف يكون هذا بلسان قومه؟ فهنا يستدل بهذه الآية على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة، محبوبة؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل الله على رسوله إلا بها، فإذا تمرنوا على العربية ونشأ عليها صغيرهم وصارت طبيعة لهم، حينئذ يكفون المؤونة،

---

[8] () صححه الألباني.

[9] () آل عمران: 8.

ويمكن أن يكونوا بهذا من العلماء، فيتلقوا عن الله وعن رسوله كما تلقى الصحابة؛ لذلك عندما ننظر إلى علماء الحديث، بل إلى العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة العربية نفسهم نجد أن كلهم -إلا ما ندر- أعاجم في أصلهم لكنهم تعلموا العربية فأصبحوا بهذه اللغة كلهم عربًا من جهة استعمالهم للغة العربية وليس من جهة أصولهم، وقد سهل الله هذه اللغة على من تسهلت عليه، وهذه اللغة عماد جمع أهل الإسلام، وهذه اللغة يحاربها أهل الباطل لأنها هي التي تجمع أهل الإسلام حول القرآن.

فليكن منا عناية واهتمام، ولنعرف أن معنى هذه الآية أن الرسول يأتي بلسان قومه في كل ما مضى، فلما أتت هذه الرسالة العالمية، اصطفى الله اللغة العربية لتكون لغة القوم جميعًا، فيجتمعوا على اللغة العربية، فيزداد البيان.

أما من لم يكن عنده قدرة على ذلك فقد يسر الله -عزّ وجلّ- أسبابًا عظيمة لإيصال الحق، من هذا الترجمة التي نعرفها، وهذا كله من التسهيل.

لكن هذه الآية تدل على أن المطلوب أن تقوم بهذا اللسان (إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) يقومون بهذا اللسان، فلتكن اللغة العربية التي اصطفاها رب العالمين هي قوام المسلمين ولا يحصل ما نراه اليوم من تصرف عكسي، بحيث يكون أهل الإسلام الذين المفروض أن يقوموا بالقرآن، وبلغة القرآن ينصرفون عن لغة

القرآن إلى لغة الأعاجم! نعوذ بالله من الخذلان، هذا عين الخذلان! يستعمل الإنسان اللغات الأخرى في مكانها وعلى حسب الحاجة، وفي النهاية تقوم بها الدنيا، أما لغة العرب، اللغة العربية، لغة القرآن فتقوم بها الدنيا والآخرة، وهي من أهم أسباب الاجتماع للمسلمين، فنسأل الله أن يدفع عنا هذه الغفلة، وأن يصرف عنا أسباب الذلة، وأن يقوّي التقوى في قلوب المسلمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.